ادوارد سعيد خارج العالم

أدوارد سعيد المثقف ـ الظاهرة

زينات نصري ـ الولايات المتحدة

تعرفت على ادوارد سعيد أواخر التسعينيات في جامعة ديوك في بريطانيا، ثم حصلت على بطاقة دعوة للحضور في مدرج سانت كاترين حيث حضر أساتذة جامعات وأعضاء برلمان ومفكرون من أرجاء بريطانيا وأخذوا يصفقون بطريقة حادة وغير مألوفة في الغرب، كان تيري إيغلتون وريموند وليامز وتوني تانر من كتاب اليسار يتحدثون عنه بإعجاب حاد، وكان اليمينيون في الجامعات يعتقدون أنه لم تنجب البشرية عقلية جبارة مثل عقلية ادوارد سعيد، كان هارولد جيمز يقول: " لا أعرف مفكراً له هذا التنوع والموسوعية مطلقاً." وقد حضي بإعجاب ميشيل فوكو وهارولد بلوم وفريدريك جيمسون وهايدن وايت وغيرهم من كتاب الغرب ومثقفيه.

لقد كان أول كاريزما في عالم الثقافة بأناقته ووسامته وقدرته على الكلام، يعتقد الغويون أنه لم تثر لغتهم بهذه الثروة منذ جويس، لقد غير اللغة الإنكليزية ودفعها دفعاً قوياً في كل كتبه: بدايات، الاستشراق، تغطية الإسلام (العالم، النص، الناقد)، مسألة فلسطين، تحت سماء الأول، الثقافة والإمبريالية، صور المثقف، الثقافة والنفي، خارج المكان، وأكثر من ألف مقالة ودراسة. كان حلم ادورد سعيد هو كتابة رواية، إلا أنه لم يكتبها، ومع ذلك فقد كان روائياً في كل ما كتب، كان نجماً أشبه بنجوم السينما حينما يدخل لجامعات، ويندر أن يتحدث مفكر في العالم دون أن يذكره، وإذا زار جامعة من الجامعات فإن الطلاب والأساتذة يتحدثون عنه عاماً بعد الزيارة، وإذا أخذاي واحد منا بعضاً من وقته فسيكون محسوداً، وإذا ناقشه أحد الأساتذة وطرح سؤالاً فإنه سيتحدث عن هذا الحدث طويلاً، وكل الأساتذة الغربيين والكتاب يدعون بأن لهم علاقة صداقة مع ادوارد سعيد ويفتخرون بذلك، بل يتحدث لنا أساتذتنا طويلاً حين يدعونه في مؤتمرات، يتحدثون عن فكاره ثم يتحدثون عن طريقة جلوسه وتدخينه أو يشيرون إلى المكان الذي جلس عليه، يقولون جلس هنا!!!

ثم تعرفت على سكرتيرته في الجامعة، وهي عراقية إسمها زينب إسترادي، وبوساطتها أخذت أزوره في مكتبه واستشيره في مجال اطروحتي، فله معرفة جيدة في الأدب العربي ويحاول أن يتابع الإصدارات الهامة قدر ما يستطيع، وفي مكتبه تعرفت على الكثير من الطلاب والمفكرين ومن مختلف الجنسيات والأديان من العرب إلى اليهود إلى الفارقة إلى الأوربيين الذين يزورونه ويستشيرونه، وقد كان متواضعاً جداً، وجاداً، ولمعياً في أفكاره.

إن أهمية ادوارد سعيد تبرز من تعددية اهتماماته وغزارة كتاباته ومنهجه النقدي الذي لا يجامل فيه أحداً. فالنقد من خصائص الفكر النقدي لسعيد، بل إن النقد هو هويته، وسعيد يمارس النقد لأنه الوسيلة الأهم لبقاء لجوهر الإنساني واستمرار ديمومته، كما إنه يقوم بإزالة ما يحيط العالم من تشوهات وتحيزات، إن أهم شيء في كتاباته هو نقد الروح الامبراطورية في العالم، ونقد التأثيرات الكولونيالية، وكذلك نقد الممارسات السياسية، وأشكال السرد الروائي الذي يركز عليه سعيد بصورة متواصلة، ثم النقد الموسيقي، وأخيراً نقد سعيد نفسه وعائلته في كتابه " خارج المكان" الذي كتبه كسيرة ذاتية له ولعائلته ولأصدقائه.

سعيد مع الحوار بين الثقافات والتعايش بين الشعوب. وقد ناضل في كل ما كتب عنه وقد اشار في كل كتبه إلى أن الحوار هو عمل أساسي في كل جهد ثقافي ومعرفي، وكان يعتقد أن العدالة الحقيقية والمبادئ الحقيقية يجب أن تطبق قبل البدء بأي حوار حقيقي.

يشكل إدوارد سعيد الكفان الصحيح والمتوازن في معادلة الشرق/الغرب الصعبة، ولذلك تجاوزته الكثير من الأطروحات في الغرب والشرق، فقد حصل على كلام لاذع من مكسيم رودنسن، والعروي حوراني، وصادق جلال العظم، وبرنارد لويس، وغيرهم. فهو، شأنه في ذلك شأن كبار المثقفين والمفكرين، كان ومازال محمل إعجاب وتبجيل ونقد وخلاف وعداء أيضاً. ولأنه مثقف حقيقي ومفكر غير مسلوم يقول الحقيقة إلى مداها الأبعد فقد حصل على معجبين كثر، على معجبين في أنحاء العالم من روسيا إلى أفريقيا، وحصل كذلك على أعداء كثر وفي أنحاء العالم، حتى في عالمنا العربي. لقد بحث ادوارد سعيد طويلاً في مفهوم الهجنة، ووضع مفهوم الهوية الهجنة في أولويات نشاطه، ذلك لأن العالم يغادر مفهوم النقاء العرقي الذي من شأنه أن يجلب أشكالاً مختلفة من النزعات العنصرية والتطهيرية في العالم، كما أن الثقافة في العالم المعاصر تستند وترتكز إلى أولئك الهجنين واللونين والمختلفين في العالم مثل ادوارد سعيد واعجاز احمد وسارة سوليري وسلمان رشدي وغيرهم، وكان هو مثالاً حياً على الهجنة الخصبة فقد كان مسيحياً مدافعاً عن الإسلام، وكان عربياً أميركياً، وفلسطينياً ناقداً لمنظمة التحرير الفلسطينية، وكان مصرياً وعالمثالثياً ومحباً للبنان والعراق وسوريا على نحو خاص، ومهتماً بأفريقيا وآسيا، ودارساً للأدب العربي بصورة رائعة. وهو الحواري والمتعدد والديمقراطي والكاره للاستبداد والمستبدين والمدافع من بسمارك إلى صدام حسين.

لقد هشم ادوارد سعيد الكاديمي المغلوس الأكاديمية، وهشم الجمود السياسي والصورة الفقهية للسياسة، وطالب بالعودة إلى نموذج المثقف العضوي والثورة الدعائية والتبشيرية والمسؤولية الأخلاقية على الطريقة الغرامشية، وكان داعية سياسياً، ومبشراً أخلاقياً، ومطالباً بحق الأفكار والحوار وديمقراطية المعرفة، وقد تبعه الكثير من مثقفي الغرب في هذه الطريقة الحوارية والتحريضية لبناء عالم واحد من الشمال إلى الجنوب.

لقد مات ادوارد سعيد بعد صراع طويل مع مرض عضال، وهو سرطان الدم، وطول إصابته بالمرض لم يكل ادوارد سعيد أو يمل من تأليف الكتب أو كتابة البيانات والمشاركة في المؤتمرات وإلقاء المحاضرات، لقد مات ادوارد سعيد وقد ترك خلفه قضية أوصلها إلى كل مثقفي العالم، ومنهجاً فكرياً محارباً لكل أشكال العنصرية وأشكال التمييز العنصري والقومي في العالم، مات ادوارد سعيد وخلفه آلاف الشباب في كل أنحاء العالم يسيرون على الطريق التي سار فيها من كفاح ونضال في ميدان المعرفة، فبالمعرفة ستبلغ البشرية مدينة النور.

ها قد رحل ادوارد سعيد .....

وبرحيله تكتمل مدوّنته الخاصة بالنسبة إلينا في الأقل، أو هكذا يبدو.

رحل إدوارد سعيد، وفي نفسه غصة أنه ظل بعيداً عن أن يشكل جزءاً مهماً من الثقافة العربية، على الرغم من أنه قرئ بشكل ممتاز في أميركا وأوربا، في أفريقيا وأميركا الجنوبية واستراليا، في الهند واليابان وسوى ذلك. ولعلّ رحيله، الذي خشيه كل محبّيه دائماً، يحفزنا الآن، على أن نباشر فتح مدوّنته عربياً، وأن نعيد قراءته المرّة تلو الأخرى، مادام شكّل درساً فكرياً وثقافياً مهماً في كل بقعة من بقاع العالم. و(المدى الثقافي) إذ تنشر اليوم هذه الباقة من الكتابات عن الراحل سعيد، لا تتمنى أن يتلقى القارئ إسهامها هذا بوصفه رثاءً، ما نريده حقاً هو أن يشكل سعيد جزءاً مركزياً من ذاكرتنا التي طالما قاوم من أجل أن لا يتمّ نسيانها أو إسكاتها.

المدى الثقافي

ادوارد سعيد: المثقف أمام واجب الإنشقاق

صبحي حديدي

محطات حياة إدوارد سعيد

(1935 - 2003) شواهد صريحة على ذلك النزوع القلق الدائم إلى الإنشقاق عن المألوف، كلما تجمّد هذا المألوف وانقلب إلى قواعد دوغمائية مطلقة مغلقة. في الثالثة عشرة من عمره أشفق مبكراً أعن الضراعات التي أرادت الأسرة أن يواظب عليها (روايات "روبنسون كروزو"، "أيفانهو"، "طرزان"، "تشارلوك هولمز"...)، فسرق كتاب سيغموند فرويد "تفسير الأحلام" من مكتبة والده وقرأه خفية في الهزيع الأخير من الليل. وفي سن السادسة عشرة طرد من "كلية فكتوريا"، المدرسة الكولونيالية الأبرز في القاهرة، لأن مناهج التدريس الإنكليزية التقليدية كانت أكثر جموداً من أن تتسع للتوثب القلق في داخله. وحين غادر إلى أمريكا عام 1951، ثم انتسب إلى جامعة هارفارد درس الآداب الإنكليزية والفرنسية والإيطالية والإغريقية والرومانية، فأدته سجيته المتمردة إلى قراءة كتابي جورج لوكاش "التاريخ والوعي الطبقي" في الترجمة الفرنسية، و"الرواية التاريخية" في ترجمتها الإنكليزية، ثم تعمق أكثر في الفلسفة الجمالية الأوربية فقرأ المفكرين الإيطاليين فيكو وغرامشي، والألمان هايدغر وأورباخ وأدورنو، والفرنسيين ميرلو ـ بونتي وغولدمان وليفي ـ ستروس وفوكو وبارت.

هذا التكوين التركيبي، المهاجر أبداً إذا صح القول، لم يكن منفصلاً عن التيارات التي كانت تعصف بالمشهد الأمريكي في مجال الأدب والنظرية النقدية بصفة خاصة، مثل مدارس النقد الجديد، والنقد النصي كما مارسه ر. ب. بلاكمور R.P. Blackmuri والتأثيرات الفردية لأشخاص مثل ت. س. إليوت ونورثروب فراي وهارولد بلوم. ولكن الفلسفة الجمالية الأوروبية ستكون حاضرة منذ البدء في عمل سعيد، ومنذ أطروحة الدكتوراه التي ستتحوّل إلى كتابه الأول "جوزيف كونراد ورواية السيرة الذاتية" oseph Conrad and the Fiction of Autobiography في هذا الكتاب اعتمد سعيد على منجزات مدرسة جنيف في النقد الفينومينولوجي، ولكنه طوّع مناهج هازفارد وتخاليدها الأكاديمية في الآن ذاته. ومن خلال التدقيق العميق في رسائل جوزيف كونراد، رسم سعيد الخطوط الكبرى لمزاج الروائي البولندي الأصل لكي يكشف كيفية توليدها للأطر الرئيسية في رواياته، ولكي يبرهن على نحو مدهش أن كونراد اشتغل دائماً بالتوتر بين وعيه لنفسه من جهة أولى، وإحساسه بالشروط التصارعة التي تكيّف وجوده كـ "آخر" فردي ولغوي في التراث المكتوب بالأنكليزية من جهة ثانية.

في الكتاب الثاني "بدايات، القصد والمنهج" Beginnings: Intention and Method ثار سعيد مشكلة فكرة البداية حين تستحوذ على الذات الفردية وتشارك في ميل الذات إلى التغيير والتبدّل، وناقش هذه الشكلة في مراحل ثلاث، في الرواية الكلاسيكية، وفي الأدب الحداثي، وفي الفاهيم السكونية التي تهيمن على الفلسفة البنيوية الفرنسية. وطرح سعيد الطراز النموذجي للبدايات كما عبّر عنه الفيلسوف الإيطالي فيكو (القرن الثامن عشر)، وكيف أن البدايات لا تكتشف بل تخلق وتصاغ وتتفاعل وتتطوّر على وفق جدل العلاقة بين العرفة التراثية والحدود الثقافية وديناميات الخيلة. كان سعيد قد اعتمد في الكتابين على الفلسفة الوجودية وميرلو ـ بونتي وهايدغر وفيكو، وكان في مطلع الثلاثين من العمر... وكانت هزيمة 1967 وحرب أيلول الأسود 1970 والعودة من جديد إلى العالم العربي تضغط على مناهج وأدوات الفكر القلق أبداً. في عام 1969 سافر إلى عمان، وشهد أيلول الأسود بأم عينيه، وتبلور تعاطفه مع حركة القاومة الفلسطينية. بعدها غادر إلى بيروت وتزوّج من سيدة لبنانية، ثم درس اللغة العربية على يد أنيس فريحة، وقرأ الغزالي وابن خلدون والفلسفة الأندلسية وطه حسين ونجيب محفوظ. قبل أن يشهد حرب 1973 ويكتشف عيانياً أن ما يجري على الأرض لم يكن يتوافق أبداً مع ما يكتب في وسائل الإعلام الغربية. وهكذا انبلورت ملامح انشقاق بارز جديد هو التفكير في خطاب الاستشراق والصورة التي ابتدعها الغرب عن الشرق والعلاقات بين العرفة والسلطة في ذلك كله. ثم صدر كتاب "الاستشراق Orientalism" الذي كانت المؤسسة الاستشراقية قبله على حال، ثم باتت بعده في حال آخر مختلف تماماً. وهذا الكتاب سوف يقود إلى عمله الأساسي حول الصراع العربي ـ الإسرائيلي "قضية فلسطين The Question of Palestine ـ 1979" وكتابه "تغطية الإسلام overing Islam 1981" الذي يستكمل نقد الاستشراق بنقد للتنميطات الزائفة التي تلجأ إليها وسائل الإعلام الغربية حين تتناول موضوعات الإسلام والشرق الإسلامي. وفي كتابه "العالم، النص، الناقد" e World,the Text,and the Critic 1983 طوّر سعيد مفاهيم جديدة تصبّ في دائرة النقد العميق والانشقاق الدائم، فتحدث عن النقد العلماني (حيث الوعي شبكة مقاومة أمام أحابيل الخطاب، وحيث القيم الانسانية الكونية هي نوافل الإجماع في تحديد جيروت أي نظام ثقافي)، والنظرية الرحّالة (Traveling Theory حيث الأفكار والنظريات تسافر مثل البشر ومدارس التفكير، منطلقة من شهادة ميلاد ونقطة بدء ومسار رحيل وشروط وصول ومقتضيات رحيل جديد)، والنقد الديني (حيث يجري نسخ الثقافة إلى شعائر وشعائر مضادة، وإلى لاهوتات مطلقة تلغي أي تمييز جدلي بين "الإرهاب" و"القاومة"، والإسلام والغربية). وبعد عقد كامل سيتابع سعيد خيوط النظرية الرحّالة في كتابه الصغير لهام "تمثيلات المثقف Representations of the Intellectual والذي كان في الأصل مجموعة محاضرات رايث، وهي السلسلة الرموقة التي تنظمها هيئة الإذاعة البريطانية في كل عام. كذلك ستتكرر مناهجه النقدية في كتاباته عن الوسيقا والسينما والأوبرا، وفي إعادة التقاطه لجوانب حيوية نوعية للثقافة الشعبية في الحياة القاهرية بصفة خاصة (البورتريه الشهير الذي كتبه عن الراقصة الشرقية تحية كاريوكا على سبيل الثال). (الثقافة والإمبريالية) uture and imperialism هو التتمة الكبرى لـ "الاستشراق"، وهذا الكتاب يستدرك ما غاب عن الكتب الأول الرائدة، سواء في مناقشة نسق الثقافة الإمبريالية أو تجربة القاومة التي أفرزها ذلك النسق ضمن عوامل أخرى. ولأن ميدان اهتمام سعيد هو الأمبراطوريات الغربية في القرنين التاسع عشر والعشرين، فإن الرواية هي الشكل الأدبي الأساسي الذي يبحث فيه عن صياغة الواقف الإمبريالية في أعمال جوزيف كونراد، جين أوستن، إ. م. فورستر، كاثرين مانسفيلد، توماس هاردي، روديارد كبلنغ، أندريه جيد، البير كامو، أندريه مالرو، وفي عمل أوبرالي مزوبوليتاني مثل "عايدة". وهو يتناول الإمبراطوريات البريطانية والفرنسية والأمريكية، ويبرز التماوية ـ الهنغارية والروسية والعثمانية والإسبانية والبرتغالية، ليس للإيحاء بأي فارق معياري في الطبيعة الإمبريالية، بل لأن الإمبرياليات الثلاث الأولى تتسم بدرجة عالية من الانسجام والوحدة ومركزة الرجعيات الثقافية. الفتاح النهجي في "الثقافة والإمبريالية" هو ما يحلق عليه سعيد اسم القراءة الطباقية التي تستمد استراتيجياتها من الطباق الموسيقي وتمكن من بلوغ تأييم معمق للخلفيات والسيرورات والأشكال في أي عمل ثقافي، وتذكر بمفهوم النقد العلماني وتطور تطبيقاته.

وفي أواخر العام 1999 صدر كتابه "خارج الكان Out of Place" الذي يروي فيه بعض سيرته الذاتية، وبعض تفاصيل الإحساس الطاغي الذي نادراً ما فارقه، وكان يفيد بأنه "خارج الكان دائماً"، من القدس التي ولد فيها سنة 1935، إلى القاهرة التي ارتحل إليها مع أفراد أسرته فأقام فيها ودرس في مدارسها، إلى بلدة ضهور الشوير اللبنانية حيث موطن والدته (الفلسطينية، لأم لبنانية)، إلى برنستون حيث أنهى دراسته الجامعية، إلى هارفارد حيث تقدم بأطروحة الدكتوراه، إلى المزيد من الترحال الدائم والملاحق، جيئة وذهاباً بين الولايات التحدة ومصر ولبنان وفلسطين (التي عاد إليها في عام 1992، للمرة الأولى منذ مغادرته لها في عام النكبة 1948)، فضلاً عن عشرات الأمكنة هنا وهناك.

كان إدوارد سعيد ينتمي، أخيراً، إلى أولئك القلة من الفكرين العاصرين الذين يسهل تحديد قسماتهم الفكرية الكبرى، ومناحيهم وأنظمتهم العرفية والهتماتهم، ولكن يصعب على الدوام حصرهم في مدرسة تفكير محددة، أو تصنيفهم على وفق مذهب بعينه. ذلك لأنه نموذج دائم للمثقف الدائم الانشقاق، ممن يعيش عصره على نحو جدلي ويدرج إشكالية الظواهر كبند محوري على جدول أعمال العقل، ويخضع ملكة التفكير لناظم معرفي ومنهجي مركزي هو النقد. إنه ناقد، ومفكر، ومنظر أدبي، وهو يساري، علماني، إنسي Humansit حداثي. ولكنه كتب نقداً معمقاً بالغ الجرأة ضد يسار أدبي يبتذل الوهبة الإبداعية حين يخضعها للسياسة اليومية أو الطارئة فينتقصها أو يستزيدها قيلساً على ما ليس فيها، وكان بين أشجع نقاد العلمانية الكوزموبوليتية التي لا تبصر أي عنصر تقدمي في العتقدات الكونة للثقافة والذاكرة الجمعية، ومارس فضحاً منهجياً صارماً وأصيلاً لنزعة إنسية مطلقة تبدأ من مركزية كونية لكي تعصب في مركزية غربية صرف تغتصبي الآخر أو تهمشه لصلحة ذات أوروبية مؤنسنة على نحو تجريدي أقصى، وغاص عميقاً في تاريخانية Historicity الحداثة وفي ملفاتها الثقافية. الاجتماعية لكي تنكشف الحدود الفاصلة بين التحديث وفسر التحديث، وبذل جهوداً مضنية لكي يكون الخطاب الصادر عن مفكري ونقاد العالم الثالث (من الشباب بصفة خاصة) بعيداً عن ابتداع مركزية جديدة تضع الأطراف في مواجهة أحادية عدائية مع الركز الإمبريالي بكل ما ينطوي عليه من إنجاز إبداعي وفكري، هو الذي كان في طليعة من فتحوا ملفات الاستشراق وتخييل الشرق وأعادوا القراءة فأفرزوا قانون بهدف تكوين جدل نقدي لنظريات الخطاب ما بعد الكولونيالي لحق التابع في تمثيل الذات.

موت إدوارد سعيد

المريض الفلسطيني في مستشفى الآخرين

نافلم عودة

-1-

يقاوم الموت بالثقافة

إدوارد سعيد، أحد أشهر الفكرين الهاجرين في العالم، الأخوذ بالسفر بين البلدان على وجه الحقيقة، والأخوذ بالسفر في بطون الكتب على وجه الجاز، سافر الآن إلى عالم آخر، يختلف تماماً عن هذين العالمين، عالم الموت الأبدي، الذي لا يستشرق فيه الستشرقون ولا يستغرب فيه الستغربون. مات إدوارد سعيد التدفق بحركة لا تهدأ، وانتقل إلى سرير ليس من أعرافه أن يتحرك النائمون فيه. قال مرة في إحدى القابلات التلفزيونية معه (مجلة LBC الفضائية) برنامج (حوار العمر) إنه يقاوم الموت بالثقافة، في إطار حديثه عن كتابه (صور التنفي) الذي يؤكد فيه أن التنفي هاوٍ في القام الأول، وكان ذلك دأبه حتى لحظاته الأخيرة. جسد إدوارد سعيد النحيف، وصوته للتعب، يخفيان وراءهما عقلاً متوقداً، وروحاً تسكن في نزوة الحساسية. مفكر يجوب العالم عبر الكتابة، والقراءة، والحاضرة، والتعليق الإعلامي، والعمود الصحفي، والعزف الوسيقي؛ جاب جامعات العالم من الغرب إلى الشرق. عاش في الغرب، وكتب جل معارفه منه، لكن روحه ظلت مغروسة في بيئته لعتيق في القدس. جسده في الغرب وروحه في الشرق. مات في الغرب، وترك وراءه ميراثاً عظيماً من الكتابات عن الشرق. كان يعري كتابات الغرب، ويكشف عن الصورة الفضلى للشرق في كتابات الاستشراق. يتلمس على خبايا الحضارة، والثقافة، ولعل يدرك أن (الوكيميا) و (ذات الرئة) تتلصصان على جسده خلسة منذ سنة 1991، فانتقل هذا الريض الفلسطيني إلى مستشفى يهودية، ومات فيلسوف الاستشراق، إذا لم نفلح كل مجمعات العلبيب الهندي أن تبعد عنه أظفار الوكيميا، ومات بها، ووضع العالم على جسده وردة، وغصناً من زيتونة قدسية.

-2-

نقد السياسة الأمريكية

بعد إدوارد سعيد، مع نعوم تشومسكي، أبرز ناقد للسياسة الأمريكية. ففي أعمدته السياسية، وفي بعض من كتبه كان يهاجم الإدارة الأمريكية على الدوام، مشدداً على عدد من القضايا: العنف العسكري، وتجاوز الفعلاء القانوني، والحق في الاختلاف، حتى أنه تساءل في كتابه (الثقافة والإمبريالية) عن: هل ينبغي أن يكون المرء محبوباً لكي لا يباد؟ ونظر لتصلب موقفه في مشروع السلام الفلسطيني الإسرائيلي بموجب معاهدة أوسلو، وانتقاده لطبيعة السياسة الأمريكية في التعامل مع الأزمات الدولية، وانتقاده ورفضه للعنف الاستعماري الذي مارسه الغرب، كان اليهود يعلقون عليه بروفيسور الإرهاب. فهو يعتقد أن الولايات التحدة هي الوسيط لفشاش Dishonest broker في عملية السلام بسبب مساندتها الدائمة واللامحدودة لإسرائيل.

وكانت أوسلو بالنسبة له، مشروعاً للاستسلام، لأن الفلسطينيين ذهبوا إليها دون تحضير مسبق للخرائط، واللغة، والسند القانوني، وما إلى ذلك من وثائق تدعم الحق الفلسطيني، ومن هنا فهو يسمي اتفاقية السلام بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية بـ "آلة استسلام فلسطيني". ونظر ذلك، فقد كان على خصام شديد مع الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات بعد عقود من السادة. وعندما وقعت أحداث الحادي عشر من سبتمبر، كان له رأي في الحملة الإعلامية على العرب التي تصفهم بالإرهابيين، فهو يقاوم ويرفض بشدة مفهوم (الحليعة العربية) الذي يتمسك به العلقون الغربيون، لوصف عمليات العنف العربي أياً كان نوعها. يريد إدوارد سعيد أن يخلص إلى فرضية مفادها، أن الإرهاب مفهوم سياسي، ولابد من النظر إليه في السياق التاريخي، وهو لا ينتقد الغرب وحده في ذلك، بل يوجه انتقاده إلى العرب أيضاً، في محاولتهم إيجاد أساس ثقافي وديني للعنف الذي تمارسه جماعات إسلامية متعرفة. وهو في عمله هذا مفاهيم مثل: العنف، الإسلام، اتجاهات الإسلام السياسي الغرب. ويرى أن الثقافة العربية تحاول أن تجد على الدوام أصولاً لتظاهرة العنف في متون النصوص الدينية، والنصوص التراثية الأخرى، وتسوغ هذه الظاهرة. وهو هنا ينتقد الثقافة العربية في تفتيشها عن مسوغات للعنف السياسي، مثلما انتقد الثقافة الغربية أيضاً في تفتيشها عن مسوغات ومبررات للحملة الاستعمارية على شعوب الأرض، قال: إن الاستشراق كان إضفاء لعقلنة متطرفة مسوغة على لحكم الاستعماري (ص 70 / الاستشراق). ونقد نبّه إدوارد سعيد إلى خطر اقتران الإسلام والعرب بالعنف والدموية، وهذا هو الهدف من دعوته إلى القراءة في ضوء (السياق التاريخي).

-3-

السرد الإمبريالي

اقترن اسم إدوارد سعيد بمفاهيم إشكالية ذات حساسية حضارية، كالاستشراق Orientalism ومابعد الكولونيالية Postcolonialism والاختلاف Difference، ومابعد الحداثة Postmodernism، والنقد الثقافي Cultural criticism وعلى الرغم من أن هذه الفاهيم قد انتجتها العقلية الغربية، إلا أن إدوارد سعيد ينتقد من خلالها الثقافة الغربية التوغلة مع الاستعمار السياسي. وبمقتضى ذلك، كشف عن العقلية الاستعمارية في السرديات الغربية لدى جوزيف كونراد في روايته الشهيرة (قلب الظلام)، وهو يرى أن كونراد قد (نقل نزعاته الإمبريالية القارة إلى من تلاه، رغم أن ورثته لا يكادون يملكون عشر التسويغ ما في أعمالهم من تحيز كثير أما يكون مرهف الحس وخالياً من التعفن) (ص 65/ الثقافة والإمبريالية). ومن العروف، أن رواية (قلب الظلام) لكونراد، ورواية إي. ام. فورستر (ممر إلى الهند) هما مثالان للأدب عن الامبراطورية، وكلا العملين يستخدم عهد الامبراطورية البريطانية كخلفية للسرد، وهما يستكشفان مواقف بريطانيا وسلوكها إزاء الوضع الغربية لحدود الامبراطورية.

وكانت أسماء لامعة في الرواية الغربية كألبير كامو وتشارلس ديكنز وكبلنغ وآخرين، تخضع لهذه الفكرة عبر تحليل غاية في الدقة. كان إدوارد سعيد لا يعنى كثيراً بقراءة جماليات الرواية الغربية، فهو يقرأ السياق الثقافي الذي نشأت وتطورت فيه هذه الرواية، علاوة على السياق التاريخي، الذي يوليه أهمية كبرى في تحليل السرديات الغربية. فهو يرى مثلاً، أن السرد (يلعب دوراً كبيراً في السعي الإمبريالي، فليس من الفاجئ في شيء أن فرنسا، وخصوصاً انكلترا تمتلكان تراثاً غنياً ومتنوعاً من الكتابة الروائية لا نظير له في مكان آخر) (الثقافة والإمبريالية، ص 67). والأشكال الجمالية التي تنطوي عليها الثقافة، في نظر إدوارد سعيد، (تشتق من التجربة التاريخية) (الصدر السابق نفسه، ص 66). وكان ذلك جوهر كتابه (الثقافة والإمبريالية) (تنظر صفحة 66 منه). وهو ينتقد الرواية الغربية من هذا التطور الجديد، الذي ينتقل بالتجربة التحليلية من النص إلى الخطاب التاريخي والثقافي على حد سواء، ففي الوقت الذي كانت البنيوية فيه تهيمن على التطور النقدي بصورة تكاد أن تكون مطلقة، كان إدوارد سعيد يفتح كوة تزداد اتساعاً في تغيير ذلك التطور، من الأفق الحصور في عالم الجماليات النصية، إلى قراءة السياق التاريخي، وقراءة السياق الثقافي أيضاً. وعلى هذا الأساس، كان يرى أن (فننا عظيماً مثل كبلنغ) (ص 66/ الثقافة والإمبريالية) يلح في روايته (كيم) على (الإيمان بأن الوضع الهندي كان يتعلب، بل يحق له أن يستجدي الوصاية البريطانية إلى ما لا نهاية له) (ص 66/ الثقافة والإمبريالية).

-4-

تفكيك كنايات الاستشراق

كتاب (الاستشراق)، الذي يفترض أنه ترجم إلى 26 لغة في العالم، هو أحد الكتب الأساسية التي وضعت إدوارد سعيد في قلب العلاقة الختدمة بين الشرق والغرب. مادة الاستشراق مادة لذيذة، تجعل الشرقي يرى صورته التي رسمها له الغربي، فيلف حبالها بكثير من الريبة، كما تجسد لدى إدوارد سعيد، وتجعل الؤلف الغربي يرسم صورة الشرق تحت ضغط مخيال استشراقي يستمد مادته الأساسية من نصوص تخييلية بصورة رئيسة. والقارئ الغربي، يعرف أن صورة الشرق الشفولة بأقلام الرحالة والرسامين والؤلفين الغربيين، ليست سوى صورة مفعمة بالغوية والشهوانية والإباحية الجسدية. ونظر ذلك، فإن الشرق لدى هؤلاء الستشرقين، كما يراه إدوارد سعيد، ليس حقيقة من الحقائق الملموسة والحددة تحديداً عقلياً وثقافياً وتاريخياً وجغرافياً أيضاً، بل شرقاً افتراضياً. ويرى إدوارد سعيد أن الثقافة الغربية هي الؤولة عن خلق إنتاج الشرق (سياسياً، واجتماعياً، وعسكرياً، وعقائدياً، وعلمياً، وتخيلياً، في مرحلة مابعد عصر التنوير) (ص 39/ الاستشراق). والفكر الاستشراقي في الكتابات التي يتحدث عنها، ليس سوى فكر استعماري، ولذلك فهو ينتقد حتى كارل ماركس في كتابه عن الاستشراق، إذ استخدم نظرية الاستشراق في كتاباته عن الهند والجزائر، وقال عن هذه الشعوب: إنهم عاجزون عن تمثيل أنفسهم؛ ينبغي أن يمثلوا ويظهر الشرقيون والعرب عندما آخرين (سذجاً، غفلين، محرومين من الحيوية والقدرة على البادرة، مجبولين على حب الإطراء البالغ، والدسيسة، والدهاء، والقسوة على الحيوانات، والشرقيون لا يستطيعون السير على الطريق أو الرصيف فعقولهم الفوضوية تعجز عن فهم ما يدركه الأوربي البارع بصور تفورية، وهو أن الطرقات والأرصفة شقت وبنيت لكي يمشى عليها، والشرقيون عربقون في الكذب، وهم كسالى وسيئو الخلق، وهم في كل شيء على طرف نقيض من العرق الانجلو ـ ساكسوني في وضوحه ومباشرته ونبله) (ص 70/ الاستشراق). هذه هي الصورة الغربية للشرق، فضلاً عن الصورة التي ترى فيهم عشاقاً للبهلش والجنس، مما يقتضي أمة أكثر تحضراً أن تكون قادرة على حكمهم، وإدارة شؤونهم. و إدوارد سعيد يرفض هذه السوغات التي روجتها نظرية الاستشراق، ويؤمن بحق الجتمعات من حول إلى حول آخر، إلى أصولها الأولى إلى نروتها ثم تحطامها، وتعني طبعاً امتلاك القدرة على القيام بهذا السح (ص 64/ الاستشراق). وينتقد إدوارد سعيد هذه النظرية انتقاداً عنيفاً، لأنها أجازت لهذه الشعوب الامبراطورية استعمار شعوب أخرى، كانت في يوم من الأيام منافسة حضارياً وسياسياً وثقافياً أيضاً. فمعرفتها، طبقاً لفرضية بلفور، تسوغ لها (السلطة) على هذه الشعوب، وهو ما يحول نظرية العرفة من حقل الدراسات الانثروبولوجية الخالصة الدائمة للتحول للجتمعات من حول إلى حول آخر، إلى حقل لحيازة الاستعمارية. ويحولها كذلك إلى جنس من الدراسات الغائية، ذات الصلة بالؤسسات الاقتصادية والسياسية بصورة مباشرة. و إدوارد سعيد، يكشف هنا عن خبايا الخطاب الغربي غير التفصل عن السياق التاريخي، ولذلك فهو يدعو إلى نعمة من القراءة الخاضعة لـ (السياق التاريخي)، وهذا ما قام بتطبيقه في كتابه الآخر (الثقافة والإمبريالية)، حينما درس السرديات الغربية من هذا التطور الذي يلح عليه إدوارد سعيد بقوة، ووجد أن جماليات كثير من الروائيين اللامعين، كانت خاضعة بقوة لذ (السياق التاريخي)، وهو ما يقتضي قراءتها في ضوء معطيات السياق التاريخي.